حياة أعظم الرسل

عظمة محمّد طول حياته

عظمة محمّد طول حياته

كَانَ مُحمدٌ مَثَلًا نَادِرًا فِى طُفُولَتِهِ ، طَاهِرًا فِى شَبَابِهِ ، زَاهِدًا فِى حَيَاتِه . وَكَان أَعْدَلَ الْقُضَاةِ فِى قَضَائِهِ ، وَأَشْجَعَ الْقُوَّادِ فِى دِفَاعِهِ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَحسَنَ مَثَلٍ لِلْمُصلِحِينَ وَالْمُرَبِّينَ .

اِختَصَّهُ اللهُ بِكُلِّ خُلُقٍ نَبِيلٍ ، وَأَدَّبَهُ فَأَحسَنَ تَأدِيبَهُ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعلَمُ وَكَانَ فَضلُ اللهِ عَلَيهِ عَظِيمًا . فَقَد حَرَسَهُ

بِعِنايَتِهِ ، وَحَفِظَهُ بِرِعَايَتِـهِ ، وَأَمر العَالَـمَ بِطَاعَتِهِ ، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ بَعدَ طَاعَتِهِ . « مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » . وَلَم يَسجُدْ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لِصَنَمٍ مِنَ الْأَصْنَامِ ، وَلَم يَشتَرِكْ فِى عِيدٍ مِن أَعَيادِهَا .

كَانَ مُحمدٌ مَثَلاً كَامِلاً لِلإِنسانِ الْكَامِلِ . لَهُ شَخصِيَّةٌ قَوِيَّةٌ مَحبُوبَةٌ ، لَا يَقرُبُ مِنهُ أَحَدٌ فِى كَمَالِهِ وَعَظمَتِهِ ، وَصِدْقِـهِ وَأَمَانَتِـهِ ، وَزُهْدِهِ وَعِفَّتِهِ . اِعتَرَفَ لَهُ كُلُّ مَن عَرَفَهُ بِنَفسِهِ الْعَالِيَـةِ ، وَقَلْبِـهِ الطَّاهِـرِ ، وَعَقلِـهِ الْمُفَكِّرِ ، وَذَكَائِهِ الْفَائِقِ ، وَإِرَادَتِهِ الْقَوِيَّةِ ،

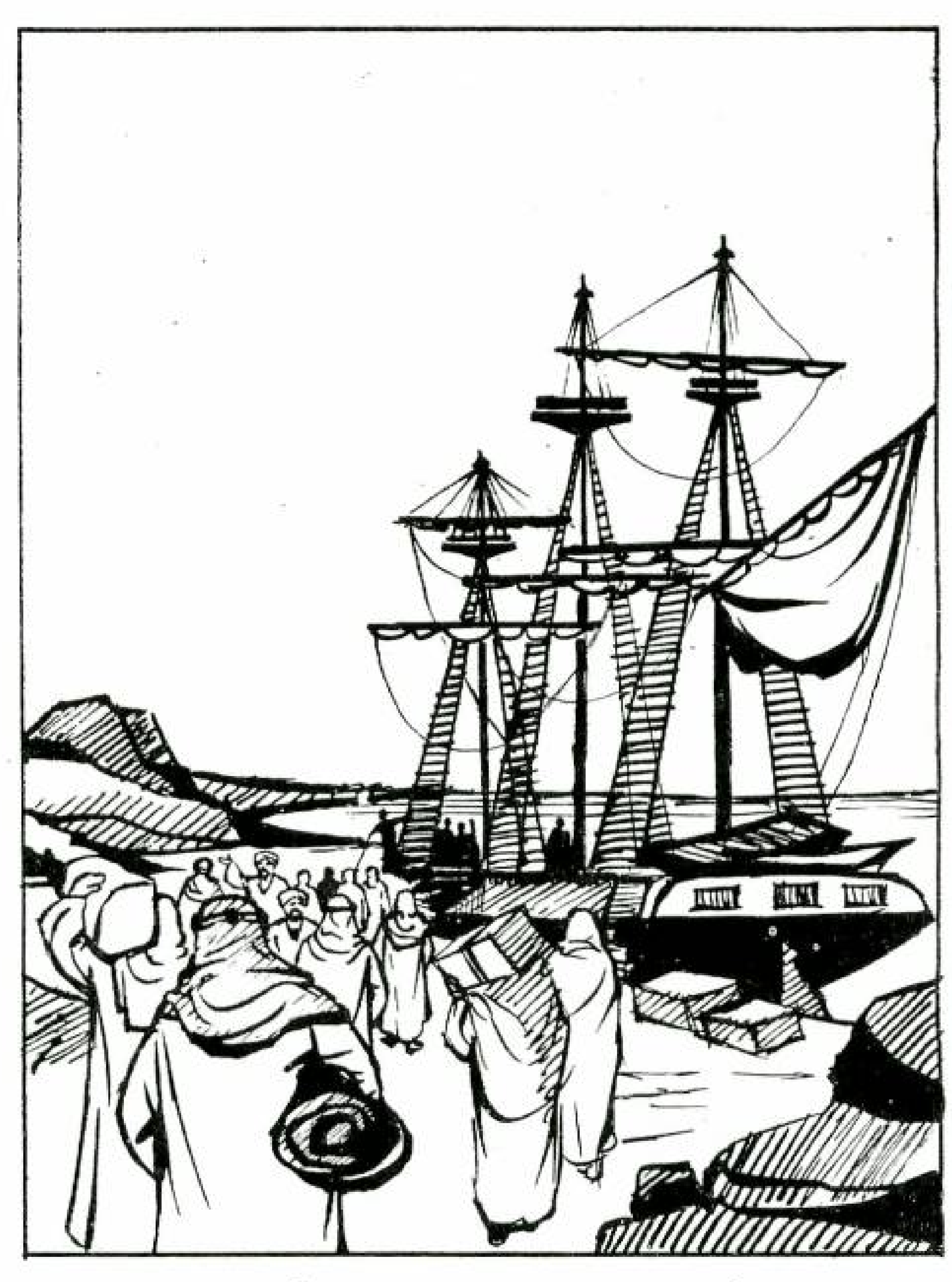
فَكَانَ خَيرَ مَثَلٍ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ .

قَالَ اللهُ تَعَالَى : « لَقَد كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ (قُدْوَةٌ) حَسَنَةٌ » . خَلَقَهُ اللهُ عَظِيمًا ، فَكَانَ عَظِيمًا مُنذُ وِلَادَتِهِ ، عَظِيمًا وَهُوَ صَبِىٌّ ، عَظِيمًا وَهُوَ شَابٌّ ، عَظِيمًا وَهُوَ رَجُلٌ ، عَظِيمًا وَهُوَ كَبِيرُ السِّنِّ ، عَظِيمًا قَبلَ الرِّسَالَةِ ، عَظِيمًا بَعدَهَا .

خَلَقَهُ اللهُ عَظِيمًا لِيُعِدَّهُ لِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ ، حِينَمَا يَبلُغُ مِنَ الْعُمْرِ أَربَعِينَ سَنَةً ، فَأَدَّاهَا أَحسَنَ أَدَاءٍ . وَأَحسَنُ دَلِيلٍ عَلَى عَظَمَةِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ أَنْشَأَ أَحسَنَ أُمَّةٍ لِلنَّاسِ فِى

أَقَلِّ مُدَّةٍ .

مَكَثَ رَسُولُ اللهِ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو أَهلَهَا إِلَى الْإِسلَامِ ، فَلَم يَستَجِيبُوا لَهُ ، وَآذَوْهُ كُلَّ الْإِيذَاءِ ، وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ بِكُلِّ أَنواعِ التَّعذِيبِ ، وَقَد صَبَرَ رَسُولُ اللهِ كُلَّ الصَّبرِ ، وَسَارَ الْإِسلَامُ بِمَكَّةَ سَيْرًا بَطِيئًا ، فَأَمَرَ اللهُ مُحمدًا بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَيهَا ، فَانتَشَرَ الْإِسلَامُ انتِشارًا سَرِيعًا ، فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاستَمَرَّ فِي دَعْوَتِهِ حَتَّى نَصَرَهُ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا ، وَانتَشَرَ الإِسلَامُ مِنَ الْجَزِيرَةِ



أَصحَابُ الرسولِ يَركبونَ السَّفِينَةَ لِلْهِجرَةِ

الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْأُمَمِ الْأُخْرَى ، بِسُرْعَةٍ لَا نَظِيرَ لَهَا فِى التَّارِيخِ .

وَبِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْمُنَاقَشَةِ بِالَّتِى هِىَ أَحسَنُ ـــ دَخَلَ النَّاسُ فِى دِينِ اللهِ ـــ وَهُوَ الْإِسلَامُ ـــ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ ، وَسَارَ الْإِسلَامُ سَيْرًا سَرِيعًا .

ظَهَرَ مُحمدٌ بَينَ العَرَبِ وَكَانُوا فِى جَهْلٍ تَامٍّ ، وَتَنَازُعٍ مُستَمِرٍّ ، وَكَانَت كُلُّ قَبِيلَةٍ فِى خِلَافٍ دَائِمٍ مَعَ جَارَاتِهَا مِنَ الْقَبَائِلِ . فَكَوَّنَ مِنَها رَسُولُ اللهِ أُمَّةً عَظِيمَةً ، وَأَسَّسَ دَوْلَةً وَاسِعَةً ، وَأَقَامَ عَالَمًا جَدِيدًا ، وَأَنشَأَ جِيلًا

قَوِيًّا ، عَالِيَ النَّفْسِ ، شَدِيدَ الْإِيمَانِ ، طَاهِرَ الْخُلُقِ ، عَظِيمَ الْأَمَانَةِ ، خَاضِعًا لِلْحَقِّ ، مُتَمَسِّكًا بِالْعَدَالَةِ . وَهِيَ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ ، لَم يَقُمْ بِهَا أَحَدٌ مِن قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعدِهِ .

فَعَظَمَتُهُ ﷺ تَظهَرُ فِي أَنَّهُ كَوَّنَ أُمَّةً عَظِيمَةً — هِيَ خَيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ — مِن قَبَائِلَ مُتَفَرِّقَةٍ مُتَنَازِعَةٍ ، فَوَحَّدَ بَيْنَهَا ، وَسَوَّى بَيْنَ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا ، وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَاحِدَةً ، قَوِيَّةً مُتَعَاوِنَةً، يَخَافُهَا غَيرُهَا مِنَ الْأُمَمِ . وَأَنشَأَ دَولَةً إِسلَامِيَّةً مُؤمِنَةً ، قَوِيَّةَ الصِّلَةِ بِاللّٰهِ ، تَكَوَّنَت مِنهَا الأُمَّةُ الإِسلَامِيَّةُ الْعَظِيمَةُ .

كَانَ مُحمدٌ ﷺ الْمَثَلَ العَالِىَ فِى أَخلاَقِهِ وَأَفعَالِهِ وَتَصرُّفَاتِهِ .

كَانَ يَدعُو إِلَى الْمَحَبَّةِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالْأُخُوَّةِ الْإِنسَانِيَّةِ ، قَائِلًا : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

وَفِى خُطبَتِهِ الْأُولَى بِالْمَدِينَةِ نَادَى بِالإِحسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ، وَالْعَطْفِ عَلَى الْمَسَاكِينِ ، وَقَالَ : « مَنِ استَطَاعَ أَن يَقِىَ (يَحفَظَ) وَجهَهُ مِنَ النَّارِ بِشِقَّةٍ (بِنِصْفٍ) مِن تَمْرٍ (بَلَحٍ) فَلْيَفْعَلْ . وَمَن لَم يَجِدْ

فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ؛ فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى (تُثَابُ) الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا » . وَقَدِ اخْتَارَهُ اللهُ لِتَبلِيغِ رِسَالَتِهِ ، فَكَانَ الرَّسُولَ الْأَمِينَ فِى أَدَائِها ، « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » ، أَىْ وَمَا يَنطِقُ بِالقُرآنِ عَن مَيلٍ وَشَهْوَةٍ فِى نَفسِهِ . وَقَد عُرِفَ بِالصِّدْقِ فِى قَولِهِ ، وَالْأَمَانَةِ فِى عَمَلِهِ ، حَتَّى سُمِّىَ الصَّادِقَ الْأَمِينَ .

وَكَانَ النَّبِىُّ ﷺ لَا يُفَكِّرُ فِى سُلْطَةٍ أَو رِيَاسَةٍ ، مُتَوَاضِعًا كُلَّ التَّوَاضُعِ فِى غَيرِ ضَعفٍ ، كَثِيرَ الْعَطفِ عَلَى كُلِّ فَقِيرٍ أَوْ مِسكِينٍ ، أَو عَبدٍ رَقِيقٍ (غَيرِ حُرٍّ) . وَإِذَا

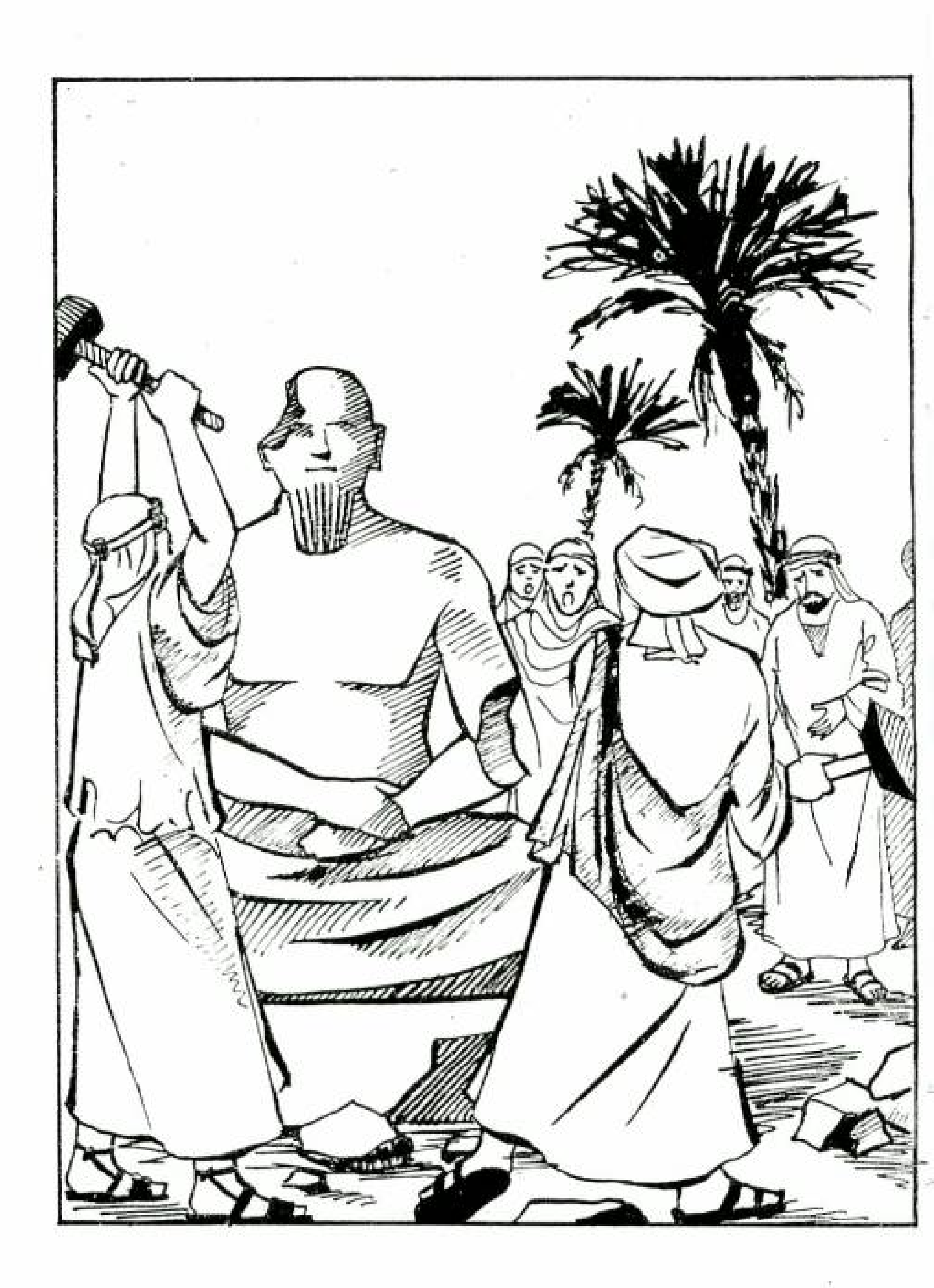
اعْتَذَرَ مُخطِئٌ عَن خَطَئِهِ قَبلَ اعتِذَارِهُ . وَإِذَا طَلَبَ مِنهُ مُحْتَاجٌ أَو ضَعِيفٌ حَاجَةً قَضَاهَا لَهُ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى نَفسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ . وَإِذَا كَانَ فِى مَنزِلِهِ لَا يَمتَنِعُ أَن يُرَقِّعَ ثَوبَهُ ، وَيَحْلُبَ نَعْجَتَهُ ، وَيَربُطَ جَمَلَهُ بِنفسِهِ .

وَتَظهَرُ عَظَمَتُهُ فِى عَقلِهِ الْمُنَظَّمِ ، وَرُجُولَتِهِ الْكَامِلَة ، وَشَجَاعَتِهِ النَّادِرَةِ ، وَلِسَانِهِ الْفَصِيحِ ، وَكَلَامِهِ الْعَذْبِ ، وَتَفكِيرِهِ الْبَعِيدِ ، وَتَدبِيرِهِ الْمُتْقَنِ ، وَذَكَائِهِ الْفَائِقِ ، وَقَلبِهِ الرَّحِيمِ ، وَإِحسَاسِهِ النَّبِيلِ ، وَعَفوِهِ عِندَ الْمَقدِرَةِ .

كَانَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ الْمُصلِحَ الأَكبَرَ ، الَّذِى لَا نَظِيرَ لَهُ بَينَ الْمُصلِحِينَ . كَانَ المَثَلَ الْعَالِىَ فِى كُلِّ مَا يَقُولُ وَمَا يَفعَلُ .

وَقَد أَتَمَّ الرَّسُولُ مِنَ الْأَعمَالِ مَا يُدهِشُ الْعُقُولَ . فَلَم يَرَ التَّارِيخُ مُصلِحًا أَيقَظَ النُّفُوسَ ، وَأَحيَا الأَخلَاقَ ، وَرَفَعَ شَأْنَ الْفَضِيلَةِ فِى زَمَنٍ قَصِيرٍ ، كَمَا فَعَلَ مُحمدٌ ﷺ . وَلَا عَجَبَ ؛ فَمُحَمَّدٌ صَنَعَ أُمَّةً مُتَعَاوِنَةً عَظِيمَةً مَلَأَ ذِكرُهَا التَّارِيخَ . وَأَحيَا قَومًا كَانُوا يَعِيشُونَ فِى الصَّحْرَاءِ عِدَّةَ قُرُونٍ ، وَلَا يَهتَمُّ بِهِم أَحَدٌ ، وَكَانُوا جُهلَاءَ

لَا حَظَّ لَهُم مِنَ الْعِلْمِ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّبِىُّ الْعَرَبِىُّ صَارُوا قِبلَةَ الْأَنظَارِ فِى الْعُلُومِ وَالْآدَابِ ، وَمَلَئُوا الْأَرضَ عِلْمًا وَنُورًا وَمَعرِفَةً ، وَأَدهَشُوا الْأُمَمَ الْقَدِيمَةَ فِى الْحَضَارَةِ وَالْمَدَنِيَّةِ ، وَأَصبَحُوا كَثِيرِينَ بَعدَ أَن كَانُوا قَلِيلِينَ ، أَقوِيَاءَ بَعدَ أَن كَانُوا ضُعَفَاءَ . وَلَم تَمْضِ مِائَةُ سَنَةٍ حَتَّى استَضَاءَت أَطْرَافُ الْأَرْضِ بِعُقُولِ الْمُسلِمِينَ وَعُلُومِهِم ، وَأُدَبَائِهِم وَعُلَمَائِهِم .



عَظَمَةُ الرَّسُولِ فِى القَضَاءِ عَلَى عِبَادَةِ الأَصنَامِ :

تَظْهَرُ عَظَمَةُ الرَّسُولِ فِى أَنَّهُ قَامَ وَحدَهُ يَدعُو قَومَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللّٰهِ وَحدَهُ ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصنَامِ . وَفِى بَدءِ الدَّعوَةِ وَقَفَ وَحدَهُ أَمَامَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ ، وَأَمَامَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَامَ الْعَالَمِ كُلِّهِ يُنَادِى بِعِبَادَةِ اللّٰهِ وَحدَهُ ، عَمَلًا بِقَولِهِ تَعَالَى : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِى

دِينِ » . فَانتَصَرَ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَنَشَرَ دِينَ اللهِ ، وَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ . وَأَخرَجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَرَفَعَ رَايَةَ الْإِسلَامِ ، وَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَمْـلِكُ سُلْطَانَ الْمَالِ ، وَلَا جَاهَ الْمُلُوكِ ، وَلَا يَقُولُ إِنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَلَا يَدَّعِى عِلْمَ الْغَيبِ . وَهـٰذِهِ هِىَ الْعَظَمَةُ الْمُحَمدِيَّةُ .